التّأليف النّحوي عند ابن الطيّب الفاسي على ضوء كتابه فيض نشر الانشراح من روض طي الاقتراح- دراسة وصفية تحليلية نقدية-

أ . أوريدة قرج

المركز الجامعي ميلة

الملخص: يمثّل العالم ابن الطيّب الفاسي الشّرقي أحد النّماذج الحيّة المؤلّفة في الفترة المتأخرة من الدّرس النّحوي، وقد أسهم من خلال كتابه الموسوم بـ: "**فيض نشر الانشراح من روض طيّ الاقتراح** في إزاحة الكثير من الغموض الذي اكتنف كتاب "**الاقتراح في أصول النّحو للسّيوطي**"، وأوضحه على منوال دقيق وواضح، بالرغم من بعض الهفوات التي لوحظت فيه، إذ أثرى الكثير من قضايا النّحو، وفصّل فيها، وقد اعتمد في ذلك منهجية الشّرح بأسلوب موضوعي ، محكم، وثريّ، برزت من خلاله شخصيته العالمة والمتبحّرة في علوم اللغة بمختلف مشاربها وفروعها، فزادته غنى وجلاء، وهو ما يجعله في رأيي كتابا مميّزا، وسبيلا نافعا للدارسين، وطلاب العلم عموما، لفهم حيثيات النحو وأصوله وقضاياه المتشعبة، أين طلّ من خلاله النّحو إطلالة جديدة وبزيّ يتماشى مع مستجدات العصر وتغيراته الثقافية والفكرية من حيث الدّرس والتأليف.

الكلمات المفاتيح:التّأليف النحوي ؛ ابن الطيب الفاسي؛ كتاب فيض نشر الانشراح؛ تحليل ونقد.

Copyrightgrammar whenibnTaieb ElFassi through his book:FaidNachr ELinchirrah FiRawdTaie AL-iktirrah

-.Analytical Study, descriptive, critical-

Abstract: The author grammar ibnTaiebFassiAcharki is a vivid example of the authors in the last period of the grammar lesson and has contributed through his book: ": FaidNachr EL inchirrah Fi RawdTaie AL-iktirrah" in a lot of ambiguity that was in the book: "EL iktirrah Fi OssoulELnahw " as the author al-Suyuti), as interpreted by the platform for a clear and precise. Despite some shortcomings were observed, however, that many of the issues as the richest, List and describe, it focused on the methodology of the explanation in an objective manner, coherent, and logical, and appeared in his book cultural personality in-depth language of the various sources of science and its branches, which made a valuable production and clear and abundant, the thing that made his book in my opinion is highlighted, a useful tool for students, researchers and in general, to the understanding of issues of this science and its subsidiary (Iacc), where from which has emerged as a new look to fit with the modern era and its variations, intellectual and cultural.

Key words: The Copyrightgrammar; ibnTaieb EL Fassi; book FaidNachr ELinchirrah Fi RawdTaie AL-iktirrah;Analysis and criticism.

مقدمـــة: إنّ الغوص في التّراث العربي، والكشف عن أغواره وعن صنّاع فوائده، صار قبلة المتعطّش لدراسة وفهم هذا التراث والاستفادة من كنوزه الجمّة، بل وأكثر من ذلك؛ يُعدّ المادة الخام للدراسات اللغوية الحديثة، وأخص هنا تحديدا: الدراسات النّحوية، لذلك كان الاشتغال على هذا التّراث الضّخم ضرورة ملحة، ومسؤولية تقع على عاتقنا، وذلك عبر تجنيد العقول لعقد قراءات عنه وإجراء حفريات، وعمليات مسح لكل الإسهامات سواء التي أسّسته وشيّدته، أو التي حفظته وجمعته وشرحته وعبّدت الطريق ويسّرته للدارسين وطلبة اليوم .

لذلك، سأسعى في هذا المقام الكشف عن أحد أعلامه المتميزين والمُصنّف ضمن خَدَمَة التراث النحوي العربي الذي امتدّ رحابه ليشمل المغرب العربي، هذا الأخير الذي أنجب في القرن الحادي عشر هجري دُرّة من دُرره ذلك هو: **ابن الطيب الشرقي الفاسي**

المغربي الذي سأحاول الوقوف عند جهوده الفذة في شرح هذا التراث عبر أحد مؤلفاته القيمة في النحّو والموسوم بـ : **"فيض نشر الانشراح من روض طي الاقتراح"**،ويعد شرحا قيّما لكتاب "الاقتراح في أصول النحو وجدله" للسيوطي، وسيأتي تفصيل ذلك في العرض بالوصف والتحليل البنّاء.

1- الّدراسة الوصفية الخارجية للكتاب: إن من خصائص الدّراسة الوصفية كما هو معمول في العرف اللّساني؛ أن تُدرس الظّواهر اللّغوية بصفة آنية، وتخضع للملاحظة والوصف كما هي قارة على أرض الواقع، وذلك ما نحن بصدد القيام به في هذه الدراسة.

أ- **الهيئة والشّكل:** تمتاز واجهة كتاب المُؤلف - كما يظهر في الشكل المقابل أعلاه– بمجموعة من السّمات الشّكلية والفنّية نذكر منها التالي:

- يطغى على واجهة الكتاب لونان أساس أنهما الأسود والأحمر، بحيث يتمركز الأسود بشكل كبير في وسط الواجهة، في حين يتصدّر اللون الأحمر الطرف العلوي للكتاب، ثم يلتقيان بعد ذلك ليمتزجا بطريقة منسجمة مع اللون الأبيض على هيئة أشكال هندسية جميلة توحي إلى الفن المعماري العربي الأصيل.

- أمّا خطّ الكتاب فهو مكتوب باللّون الأبيض المناسب للوني خلفية الواجهة - كما يبدو في صورة الكتاب- حيث يظهر العنوان المركزي للكتاب بالخطّ العريض المنقوش بأحد أنواع الخطوط العربية الجميلة التي تنتمي إلى التراث الفني الإسلامي، فجاء متناغما مع الهندسة الفنية المحيطة به، ثمّ يتدرّج سمك الخطّ بين المتوسّط والرفيع بحسب المعلومات الواردة في واجهة الكتاب.

ب - المعلومات المسجلة في الواجهة:

العنوان المركزي للكتاب: وُسم بـ" **فيض نشر الانشراح من روض طي الاقتراح**" للمؤلف **أبي عبد الله محمد بن الطيب الشرقي الفاسي** متبوعا بتاريخ ميلاده ووفاته، ثمّ ذكر في الوسط عنوان كتاب "**الاقتراح في أصول النّحو وجدله**" لصاحبه جلال الدّين السيوطي الذي يعدّ مؤلّفا مشهورا في ساحة الخزانة التّراثية العربية، وقد نال قسطا وافرا من الاهتمام والدّرس. وقد انكبّ عليه ابن الطيبب الدّرس منتهجا بذلك شرحه وتبسيطه وقد أشار إلى ذلك في مقدمة كتابه حين قال ".. وأدنيت للقاطفين من رياضه أزاهره، وقصدت بالشرح غوامضه..." [1] وبغيته من ذلك هو أن يكون أقرب سبيلا للمقبل عليه، وأسهل تناولا، وأكثر

انشراحا عند قراءته، ولعلّ ذلك ما يعطي تفسيرا لسبب تسميته عنوان كتابه بـ: فيض نشر الانشراح من روض طيّ الاقتراح.

محقّق الكتاب: هو الأستاذ الدكتور **محمود يوسف فجال**، والفضل عائد له في إخراج وتحقيق هذا الكتاب، والأستاذ فجال متخصّص في الدراسات النحوية والصرفية بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية – كلية الشريعة والدراسات الإسلامية- بالأحساء.

دار النّشر: وهي دار للدراسات الإسلامية وإحياء التراث وجدناها مذكورة في الجهة العلوية من واجهة الكتاب – كما يظهر في الشكل- مع الرّمز الخاص بها، أمّا في الجهة اليسرى، فذُكر ضمن أيّ سلسلة نشر هذا الكتاب وهي سلسلة الدراسات العربية. وقد طُبع طبعة ثانية عام 2002م.

بلد النّشر: ويتمثّل في دولة الإمارات العربية المتّحدة– دبي-.

حجم الكتاب: يصنّف هذا الكتاب ضمن النّوع الكبير باعتبار عدد صفحاته التي تجاوزت الحجم المتوسّط وبلغت 1282 صفحة وهو يمتدّ على جزءين.

2- **الدّراسة الوصفية لمحتوى الكتاب:** ينقسم محتوى الكتاب ككلّ إلى النّحو الآتي:

الجزء الأوّل: يتضمّن **افتتاحية** وفيها حديث عن أهمية اللغة لعربية باعتبارها حاملة لمعاني كتاب الله العزيز ممّا استدعى بذل الجهود للحفاظ عليها، وخدمتها، وترقيتها بصفة دائمة، ثمّ تبعها ذكر نماذج لبعض العلماء الذين تركوا بصمتهم في خدمة اللغة العربية عبر آثارهم القيّمة كالسّيوطي الذي كان جمّاعا، واعيا لمختلف كتب التراث اللغوي، وفاحصا فذّا لها، ومنها كتابه المهم الاقتراح، ليأتي بعده نموذج آخر ليعيد الفصل في كتاب السيوطي وشرحه بدقة وإتقان ويسر وهو أبو الطيب الشرقي مؤلّف الكتاب الذي بين أيدينا، وأخيرا اخْتُتمت بالثناء، والشّكر لكل هؤلاء المُسهمين في هذا التّراث.

- **مقدمة التحقيق:** وفيها كلمة محقّق هذا الكتاب، حيث تحدّث عن أهميّة علمي النّحو والتّصريف في مجال الدّراسات اللغوية وضرورة النّفاذ إليهما، ويظهر لي أنّه في سياق حديثه عن أهميّة الأصول المؤسسة للنّحو متأثّر أيّما تأثر بالنّحاة المتقدّمين عموما، وبالمتأخرين خصوصا وقد خصّ بالذّكر السّيوطي، كونه أول من أبدع كتابا على نحو جامع لأصول النّحو مرتّبا، ومبوّبا بطريقة محكمة، وقد وجدنا تصريحه بذلك في مستهَلّ كتابه

الاقتراح قائلا:" **فهذا كتاب غريبُ الوضع، عجيبُ الصّنع، لطيفُ المعنى، طريفُ المبنى، لم تسمح قريحة بمثاله، ولم ينسِج ناسجٌ على منوالهِ، في علم لم أُسبَقْ إلى ترتيبهِ، ولم أُتقدَّمْ إلى تهذيبِهِ، وهو أصول النّحو الذي هو بالنّسبة إلى النّحو كأصول الفقه بالنّسبة إلى الفقه، وإن وقعَ في متفرّقات بعض المؤلفين، وتشتّت في أثناءِ كتبِ المُصنّفين، فجمعُه وترتيبُه صُنْعُ مخترعٍ، وتأصيلُه وتبويبُهُ وضْع مُبتدعٍ، لأبرزَ في كلّ حين للطالبين ما تبتهِج به أنفُسُ الرّاغبين**"[2]، ويبدو أنّ المحقق يُقرُّ بإعجابه لكتاب **الاقتراح**، لأنّه وجده كما وصفه صاحبه، فهو مرجع الأهمّيّة لكل مطّلع راغب في فهم أسس النّحو، وما زادَه اقتناعا ظهور موجة إقبال واسعة على شرح كتابه ممن جاؤوا بعده، ومن أهم شراحه المعتمدين حسب المحقّق: ابن علاّن ويأتي بعده ابن الطيّب الشرقي -الذي اخترناه على سبيل التّمثيل في هذه الدّراسة- وقد أشاد بهما واستحسن شرحيهما، إذ زادا للاقتراح جمالا وتوضيحا وإحكاما، فكانت ثمرة تأثّر هذا المحقق بالسّيوطي وشُرّاح كتابه، أنْ ألّف كتابا تحت عنوان: "**الإصباح في شرح الاقتراح** "والذي يمكن اعتباره عصارة كل الشروح السابقة حول الاقتراح إلى يومنا هذا.

النّصّ المحققّ: ويمثّل المتن الذي يحوي لغة الشّارح ابن الطّيب الشرقي لمحتوى الاقتراح ويمتدّ من الجزء الأول إلى نهاية الجزء الثاني، وقد قسّمه وبُوَبه السيوطي كالتالي:

- **مقدّمة الكتاب؛**
- **كلام في المقدمات؛** وهي عبارة عن مجموعة من مسائل متفرقة في النحو؛
- **الكتاب الأول**: في السماع؛
- **الكتاب الثاني:** في الإجماع؛
- **الكتاب الثالث:** في القياس؛
- **الكتاب الرابع:** في الاستصحاب؛
- **الكتاب الخامس:** في أدلّة شتى؛
- **الكتاب السادس:** في التّعارض والترجيح؛
- **الكتاب السابع:** أحوال مستنبط هذا العلم ومستخرجه.
- **الفهارس:** وهي عبارة عن ملاحق مرتّبة ومصنّفة بحسب الموضوعات.

ونلاحظ أنّ ابن الطيّب قد تتبّع ورصد مسار هذا المحتوى بدقة وحذر، وتوخّى شرحا مفصّلا وشاملا لمختلف القضايا المطروحة فيه بمزيد من الفحص، والتّدقيق في كلّ شاردة وواردة، مع اعتماده سياسة التّعليق والتّعقيب وإبدائه لبعض الآراء الشخصية في ثنايا الشّرح. وسيأتي تبيان ذلك في الدّراسة التّحليلية والنّقدية للكتاب.

3- الدّراسة التّحليلية والنّقدية للكتاب: ومن المعروف في الأبحاث اللغوية عموما أن الدّراسة التحليلية تقوم أساسا على تجزئة، وتفكيك الظواهر اللغوية إلى عناصر جزئية، سعيا لإيجاد العلاقات القائمة بينها، وفهم خصائصها، فالتحليل إذا بتعبير آخر " منهج الحصول على معرفة جديدة وهو بمعناه العام، عملية تفتيت عقلي، أو فعلي لكلّ ما إلى أجزائه المؤلّف منها"[3]، وتأتي الدراسة النقدية كخطوة أخيرة لتكملة الفحص اللّغوي للعمل المنجز قصد تقويمه، وغربلته بالوقوف على مكامن القوة والضعف فيه، وإعطاء التقييم النهائي والبنّاء، للظّفر بمدى قيمته وجودته العلمية.

3-1) التّعريف بالسّيرة العلمية للمؤلّف: هو شمس الّدين أبو عبد الله محمد بن الطّيب الصميلي الشّرقي الفاسي، الإمام اللّغوي الشّهير، ولد بفاس سنة **1110**ه، نشأ وتعلّم فيها، وأخذ عن جلّة علمائها كمحمد بن أحمد المسناوي، ومحمد بن أحمد الشاذلي الدلائي، والوجّاري، والبناتي وغيرهم، وهو ينتسب إلى أسرة عالمة في العلوم والدين، ثمّ برُع وفضُل وصار إمام أهل اللّغة في عصره، فحصّل مبادئ العلوم كلّها بمسقط رأسه، ثمّ رحل إلى المشرق، ولقى عشرات من علماء المشارقة، ثمّ حجّ، ودرس بالحرم النّبوي، ودخل إلى الرّوم من طريق الشّام، ورجع من طريق مصر، وأخذ عنه في الشّام طلاب وخلق كثُر، وقد كان غزير العلم، فأمطر علمه تآليف جمّة تنيف على الخمسين، . وهي في مجملها عبارة عن حواشي وشروح في اللغة والنّحو، خدم بها اللغة خدمة جليلة، وقد عُرف هذا العالم الموسوعي في المشرق أكثر مما عرُف في المغرب[4]، لكن انتسابه لموطنه الأصل قد رفع من مقام وشأن بلاده، ومن جملة إنتاجاته نذكر على سبيل التمثيل[5]:

- حاشيته على القاموس في أربع مجلدات، شرح نظم الفصيح لمالك ابن المرحّل، شرح كفاية المتحفّظ، المسفر في خبايا المزهر (وهو شرح المزهر للسيوطي)، ضوء القاموس في زوائد الصحاح على القاموس، شرح ديوان السّتّة، حاشية على درة الغواص للحريري، ... وغيرها، فكانت كما يصفونها مضرب الأمثال في التحرير والإتقان، كما عُرف إلى جانب ذلك بنبوغه في الشعر، وحفظه لأقوال وكلام العرب، وقد ذكره المحبّي مادحا إيّاه في خلاصة

الأثر، بكونه فردا من أفراد العالم فضلا وذكاء ونُبلا، وقد توفّي بالمدينة المنوّرة سنة 1170ه ودفن عند قبر حليمة.

2-3)- الحياة السياسية والفكرية التي ميّزت عصر المؤلّف: ينتسب ابن الطيب الشرقي إلى العصر العلوي، أي نسبة إلى الفترة التي تولّى فيها العلويُون زمام الحكم في المغرب الأقصى وإنشاء الدولة العلوية، ويذكر أن أصل العلويين موصول بعلي بن أبي طالب – كرّم الله وجهه- المنتسب إلى الأسرة النبوية كونه من أقرباء الرسول (ص)، فكانوا يفتخرون كثيرا بهذا الانتساب الشريف والتبرّك به[6]،ولقد امتدّت الدولة العلوية على ثلاث عصور بداية (من 1075ه إلى غاية 1311ه) وهي فترة نهاية حكمها، وبالتالي فإنّ المؤلّف ينتمي زمانيّا إلى العصر الأول الممتدّ من (1075ه – 1171ه) بحكم تاريخ ميلاده ووفاته، وعموما فقد حمل هذا العصر في طياته مجموعة من المعطيات، مست جوانب مختلفة أبرزها: الانتقالات السياسية التي بدأت بتأسيس الدولة على يد الشريف المولى الرشيد الذي بسط سلطته ، ونفوذه بتوحيد المغرب، والقضاء على الإمارات التي استحوذ عليها أعداؤه، وخصوصا الدلائيون واسترجاعها بالقوة، ثمّ خلفه أخوه مولاي إسماعيل الذي واصل انتصاراته ضد العدوّ، بعد مواجهته لسلسلة من التّمردات، والفتن، والثورات الداخلية والخارجية وأحرز تقدما ملحوظا في مختلف المجالات، بدءا بالمجال الحربي والسياسي، ثم الاقتصادي والثقافي، ليواصل بعده -من أبنائه- مولاي عبد الله تتويج وتكملة ما بدأه والده من تحسين للجوانب السابقة، والعمل على ازدهارها، بالرغم من الاضطرابات السياسية التي عكّرت أجواء الاستقرار في عهده.[7]

وقد كان من الطبيعي أن تؤثّر تلك الأجواء السياسية على الهيكل الفكري والثقافي للمجتمع المغربي في تلك الفترة، إذ عرفت الحركة العلمية في بدايتها، فتورا وركودا بسبب اضطراب الوضع السياسي للدولة، لكنها سرعان ما عادت ونشطت بسبب حركة الزاوية الدلائية، التي أعادت بعث روح الثقافة العربية الإسلامية، وحفظ تراثها الديني والأدبي، والتي استمرت في نشر العلم رغم ما لحقها من ضعف في عهد مولاي الرشيد الذي كسر شوكة زعيمهم الثوري، لكنه على المستوى العلمي كان مشجعا، ومدعما لعلمائها، وقد سار على نهجه باقي الحكام العلويين، فقد بذلوا جهودا كبيرة في تطوير حركة النهضة الثقافية، والفكرية، والتي كان مركزها خصوصا في فاس وما جاورها، وقد برز فيها أكبر العلماء الدلائيين الذين استقرّوا فيها لنشر العلم، والدين، واللغة، والأدب أمثال: أبو علي اليوسي،

وأبو عبد الله المرابط العالم اللغوي والنحوي مؤسس مدرسة الشّراطين العريقة وغيرهما، فكانوا هؤلاء قبلة للطلبة والدارسين، للتعلّم والأخذ من معارفهم وعلمهم، وقد نبغ آنذاك علماء كُثر من بينهم ابن الطيب الشرقي الذي هو مقام مقالنا هذا، وغيره كابن بونة وابن زكرى...الخ، كما حرص الحكام على بناء المدارس، والمساجد ونشر الثقافة العربية، والدينية، وتشجيع التأليف في العلوم اللغوية والدينية، ووفي مجالات أخرى كالتاريخ، والجغرافيا، والموسيقى، أضف إلى ذلك كله؛ ظهور الابتكارات الفنية كالتّفنن في إبداع أساليب الخط العربي عموما، والخط المغربي خصوصا، كالخط الفاسي والغباري...كما تمّ تأسيس المطبعة الحجرية بفاس التي أصدرت العديد من الكتب القيمة بخطوط عربية ممتازة ورفيعة المستوى[8]، وبالتالي كان هذا العصر -رغم ما صاحبه من اضطرابات- عصرا مشرقا بالعطاءات العلمية والإنجازات القيّمة.

4)- منهج ابن الطيّب الشّرقي في التأليف على ضوء الكتاب:

4-1) طبيعة التأليفوخصائصه:يظهر من خلال الكتاب، أنّ نمط التّأليف الذي اعتمده ابن الطيّب مغايرا للنمط السّائد في القرون الأولى أيام النّحاة المتقدّمين، ولعلّ ذلك يُعزى إلى تطور العصور، أو بتعبير أدق، خضوع الحياة بصفة عامة إلى ما يسمىّ بناموس الارتقاء العام[9]، إذ تتغيّر نواميسها تبعا لتغير الحركية السياسية، والاجتماعية، والثقافية، والفكرية لكل عصر وخاصة إذا ما نظرنا إلى طُول، وشساعة الفارق الزّمني بين عصر المؤلف المنتمي إلى القرن الحادي عشر، وبين قرون التأليف الأولى، التي تنتهي تقريبا بانتهاء المدرسة النحوية البغدادية، وانتقال عهدة النّحو، ونشاطه إلى يد النّحاة المتأخرين، إذ كانت طبيعة التأليف السائدة قبل ذلك تأليفا خامّا ومؤسّسا، كون النّحاة الأوائل أخذوا على عاتقهم إرساء علم النحو، باختلاف مباحثه ومسائله إلى أن تمّ تقعيده بالكامل، وقد ظهر اكتماله مع كتاب سيبويه، لينضج التأليف أكثر مع من جاء بعده، إلى غاية ظهور كتاب الخصائص لابن جنّي في القرن الرابع هجري، الذي مثّل قمة النضج في ميدان التأليف النّحوي من حيث الدّقة، والتّرتيب إذا ما قارنّاه بكتاب سيبويه، وعموما فقد كان يطلق ذاك النوّع من التأليف آنذاك ب **"المتون"**، ويُذكر أنّ أول وأقدم شكل للمتن ظهر عند العرب بنوعيه المنظوم، والمنثور، كان في القرن الثاني للهجرة، حيث ينسب النوع الأول إلى الخليل بن أحمد الفراهيدي (ت 170ه) استنادا إلى قول خلف الأحمر(ت 180ه) الذي عاصره ، وقد ذكر أبياتا نظمها الخليل في النحو وبالتحديد في حروف النسق والعطف، يقول فيها:[10]

فانسق وصل بالواو قولك كله وبلا وثم و أو فليست تصعب

الفاء ناسقة كذلك عندنا وسبيلها رحب المذاهب مشعب

أما النوع الثاني فينسب إلى الخلف الأحمر نفسه من خلال كتابه الوجيز المسمّى (مقدمة في النّحو)[11] وبالتالي؛ رُصد لهذا النمط نوعان: منظوم ومنثور، والمتن عموما؛ مصطلح يطلق على مبادئ فن من الفنون جمعت في رسائل صغيرة خالية من الاستطراد، والتفصيل، والشواهد والأمثلة، إلا في حدود الضّرورة، ومن خصائصه العامة: الإيجاز والاختصار في العبارة، طغيان طابع التّلميح على التّصريح، بيد أن هذا التّعريف وتلك الخصائص لا تنطبق على كل المتون المؤلفة في النّحو، نظرا لطبيعة المادة أولا، ومنهجية المؤلّف، واختلاف غاياته، وتوجهاته ثانيا ضف إلى ذلك؛ أن التّأليف في المتن، يرصد عموما أوليات العلم، ومبادئه وقواعده، وهو ما نجده مثلا في كتاب سيبويه، فرغم كونه متنا نحويا[12] إلاّ انه لا ينطبق مع كل الشروط المذكورة سابقا من حيث الحجم ونسبة ورود الأمثلة والشواهد فيه.

وإذا ما عدت بأدراجي إلى نموذج الدراسة في هذا المقال، أجد فرقا واضحا بينه وبين المتن من حيث الطبيعة والخصائص، فالمؤلف ألّف كتابه (فيض نشر الانشراح من روض طيّ الاقتراح) على الطريقة الشائعة والسائدة في المرحلة المتأخرة من الدّرس النحوي، وهي التأليف على المتن أو التأليف **بالشروح** ،كما برزت آنذاك ظواهر تأليفية أخرى نتيجة الشّروح كالحواشي والتقارير، بيد أن ذلك لا يعني غياب المتون بصفة نهائية من تلك الفترة، لكنّها قليلة جدّا مقارنة بحجم الشّروح التي ألفت حولها، وعليه كان هدفي؛ هو إبراز سمات هذا النمّط من التأليف الذي طبع فترة المؤلّف، والمعطيات التي أفرزته، وكذلك النّظر في خصائصه وقيمته والغاية من ورائه ومدى تجلّي ما سبق ذكره في النّموذج الذي اخترنه.

وكلمة الشّروح في معناها اللّغوي جمع، مفرده شَرَحَ شرْحاً، وفي لسان العرب: « والشَّرْحُ الكَشْفُ، يقال شَرَحَ فلان أَمره، أَي أَوضحه، وشَرَح مسأَلة مشكلة بَيَّنها، وشَرَح الشيءَ يَشْرَحُه شَرْحاً وشَرَّحَه فتحه، وبَيَّنَه وكَشَفه، وكل ما فُتح من الجواهر فقد شُرِحَ أَيضاً. تقول شَرَحْتُ الغامِضَ إذا فَسَّرْته»[13] ومن ثمّة؛ يمكن إجمال معاني الشّرح في: الكشف والإيضاح، الفتح والتّبيين والتّفسير.

أمّا اصطلاحا، فتُطلق عموما على كلّ عمل يتوخّى فيه توضيح ما غمض من المتون وتفصيل ما أجمل منها، وهو يتراوح بين الطول والقصر، وبين السهولة والعسر، كما قد يأتي وجيزا أو وسيطا أو بسيطا، ومن جملة خصائص التي تميّزت بها الشروح المؤلّفة في المتون النّحوية أنّها« وُضعت بقصد استيفاء كل مسألة من جميع النواحي، وذكر كلّ ما يتّصل بها، ولو كان على سبيل الاستطراد أو لأدنى ملابسة، فحَوت من أجل ذلك القواعد والقوانين النّحويّة والعلل والتأويلات والعوامل والشّواهد وإعرابها، وتوجيهها، واللّهجات وما يتّصل منها بالنّحو، والبحث أحيانا في أصول بعض الكلمات »[14]، وتعود الجذور الأولى لهذا النّمط إلى فترة ما بعد التّقعيد مباشرة، أو بتعبير أدق: فترة ازدهار التّأليف النّحوي التي عرفت انطلاقة حقيقية بعد تأليف سيبويه لكتابه، إذ سجّل هذا الأخير موجة إقبال لم يسبق لها مثيل، بدءا بأتباع سيبويه ثمّ من جاؤوا بعده، إذ عكفوا عليه بالفهم والدرس والمراجعة، ما أدّى بعد ذلك إلى كثرة شرّاحه، كشرح الروماني وشرح السّيرافي وغيرهم، كما تتابعت الشّروح لمؤلفات نحوية أخرى آنذاك، كشرح جمل الزجاجي لابن عصفور وابن خروف وابن هشام، وكذلك على سبيل المثال: شرح كتاب الجمل في النحو لعبد القاهر الجرجاني، وهو شرح للمؤلف نفسه، بمعنى أنّ المؤلف للمتن هو نفسه الشارح لعمله والموضّح له، -وهو في اعتقادي- جانب مهم وأمر صائب لضمان جودة ونوعية الشرح ودقته، وبعد سقوط الحكم العباسي وتغيّر المعطيات السياسية والفكرية للفترة المتأخرة، بلغ هذا النّمط ذروة انتشاره واتساعه الفعلي في عهد المماليك الذين تزعموا قيادة العالم الإسلامي آنذاك، فصارت طريقة الشّروح بمثابة موضة تلك الفترة إلى غاية بلوج العصر الحديث، ولعل من الأسباب الحقيقية التي أدت إلى سيادة هذا النّوع من التأليف هو إعادة بعث وإحياء التراث العربي الإسلامي بعد المجزرة العلمية التي نفذها التتار بحق الكتب والمؤلفات العربية الضخمة من حرق، وإتلاف، ورمي، دون ذكر مجازرهم الدموية، إذ أسهم الحكام المماليك في تنشيط الحركة العلمية، وتشجيع العلماء والمؤلفين على التأليف، وبناء فضاءلت علمية وغيرها[15]، حتى يكون لهم مآثر وبصمات يُذكرون بها في صفحات التاريخ.

2-4) منهجية الشّرح عند ابن الطّيب الشّرقي عبر الأنموذج:

اتّضح بعد ملاحظة الكتاب، أنّ الشّرح عند ابن الطيّب الشرقي، قدتلوّن وتميّز بجملة من السّمات والخصائص منها:

– التنوّع: فأثناء شرحه لمختلف المسائل النّحوية والقضايا الأصولية التي تطرّق إليها السيوطي، يبرز تمكّن ابن الطيّب من المعجم الصرف والنّحو والإعراب، فلا تمرّ عبارة في الكتاب إلاّ ورصدها بالشّرح، والتّفصيل من مختلف النّواحي اللغوية، والصرفية والإعرابية، مع ذكر آراء بعض النّحاة حول القضية أو المسألة، فعند شرحه مثلا لكلام السّيوطي في قوله: « (وللنّحو حدود شتى) أي: تعاريف: مبتدأ وخبر، شتى: صفة (حدود) أي متفرقة في الدواوين النّحوية، جمع (شتيت) كـ (مريض ومرضى) وهو الذي عليه أكثر» ؛ ما يعني سعة علم هدا العالم، وتمكنه من علوم اللغة العربية باختلاف روافدها، وهي تقريبا سمة قابعة في فنّ الشّرح، كنمط من التأليف منذ بداية عهد الشروح والحواشي، بيد انّ جودة الشّرح تبقى مرهونة بكفاءة الشّارح، وبراعته في انتقاء وفرز وفهم مضامين، وطبيعة المواضيع التي يشرحها، وهو ما يتّصف به ابن الطيب من خلال تحكمه، وفهمه للمادة التي يشرحها، وهو ما لاحظته تقريبا في مواضع كثيرة من هذا الكتاب.

– النّحرّي: ويظهر ذلك من خلال حرصه قدر المستطاع على النّقل الصحيح، وتتبع النّسخ السليمة من المحرّفة، وذلك ظاهر في قوله:« قوله* : (بأقيسة) جمع (قياس)، أي قوانين، وفي نسخة: بـ(أبنية) جمع (بناء) وهي تحريف بلا شك والله أعلم» [16].

– انتقاده لبعض التّعريفات الغير الأصيلة، والفصيحة التي تبتعد عن الوضوح والثراء واليسر، وذلك في تعليقه على ابن الخضراوي، لمّا عرّف النّحو بقوله: « النّحو علم بأقيسة ذوات الكلم وأواخرها بالنسبة إلى لغة العرب»، فقال عنه:« وفي هذا التّعريف ركاكة غير خافية» [17] وقد فضّل تعريف ابن عصفور عليه كونه أفصح، وأدق في اختيار الألفاظ المناسبة لمقام التعريف بمحتوى علم النحو، وجزئياته حيث عرّفه بقوله: « النّحو علم يستخرج بالمقاييس المستنبطة من استقراء كلام العرب الموصلة إلى معرفة أحكام أجزائه التي ائتلف منها»، وقد عبّر عن تفضيله لتعريف ابن عصفور بقوله: « والتّعبير به أولى من قول (الخضراوي): أقيسة، إذ القواعد النّحوية المنطبقة على جزئياته لا تكاد تحصى، فجمع الكثرة [يعني بذلك: المقاييس] أولى بها دون جمع القلة [أقيسة]، كما هو ظاهر» [18]، وهذا دليل على فطنة الشارح ابن الطيب، ودقة ملاحظاته، ومعرفته الواسعة بدقائق علوم اللغة ومقاصدها.

– اتصافه بالرّوح العلمية، وعدم التعصّب لرأيه إلاّ عند الضرورة التي تستلزمها الحجّة العلمية القويّة، واعتماده مبدأ النّسبية، لأنه مدرك أنّ فوق كل ذي علم عليم، ولا يمكن للطاقة البشرية الإحاطة بكلية العلم، وشموليته القصوى، وهذا واضح جدا من خلال كتابه عند استخدامه لعبارات الشّك، وعدم القطع والجزم باليقين، الذي لا يحوزه إلاّ الخالق العليم ، فكثيرا ما يعقّب ويختم شرحه على قول السيوطي بعبارة (والله اعلم).

– اعتراف الشّارح ابن الطيب الفاسي بمكانة السيوطي، وبمستواه الفكري، وبراعته في النّظر والتّفحص، والتّدقيق، وما يتّصف به من صفات علمية، أخلاقية، كالأمانة والثقة في النّقل، وذلك في « قوله: (هذا) أي المنقول عن ابن الأنباري، وجاء به بحروفه، لكمال الثقة، والأمانة، والتبليغ والخروج عن العهدة، فإنّ النّقل بالمعنى كثيرا ما يخلّ بالمنقول، ويحيّر العقول، وفي كلامه من الجزالة، وقوّة العارضة، ما يشهد له من التّقدّم والإمامة في الفنّ، كما هو ظاهر»[19]، كما يظهر تأثّره بأقوال وآراء بالسّيوطي والاقتناع بها في مواقف كثيرة من كتابه، لينتهي بالثناء عليه، كما في قوله على سبيل المثال: « ومراده أنّ المائل إلى التّقليد، والنّازل في فنائه، والمقيم بحضيضه، لا يكاد يفرّق بين الخطأ والصّواب، ولا تخلص معلوماته عن شوائب الشكّ والارتياب، ... وإنّه كما قال، رحمه الله، وأجزل له الثّواب»، وهو اعتراف من الشارح بمدى رجاحة عقل السيوطي وعلوّ منزلته.

وعليه؛ كان ذلك بعضا مما رصدته من الخصائص التّأليفية للمؤلف في الشّرح، والتي توضّح لنا آليات الشّرح، والخطوات التي اعتمدها في توضيح ما استغلق، أو استبهم من أقوال السيوطي حول مختلف المسائل التّأصلية للنّحو، وهذا وفق ما يستدعيه هذا النوّع من التّأليف من وجهة معيّنة في التحليل، وعرض الظواهر النّحوية، والتّفصيل فيها من مختلف جوانبها، وما يُضفي عليها الشّارح من بصمات خاصة به، تدل على مستوى قدراته وإمكانياته في هذا المجال.

4- بعض مآخذ الكتاب: إنّ أيّ عمل علميّ - مهما كان قيّما- لمّا يوضع في ميزان الفحص والتّقويم إلاّ وتعلّقُ به بعض الهانات والمآخذ، وتلك هي طبيعة البحث العلمي الذي يخضع لسلسلة من التّغيرات، والتعديلات بفعل القراءات الفاحصة والناقدة له، فهو إجراء مهم، وضروري لخلق حركية مستمرة ومتجددة للعلم، وهو ما ينطبق كذلك على هذا النموذج

الذي فحصناه، لاكتشاف قدرات وجهود هذا العالم في ميدان الشروح النّحوية، فكما ظهرت ميزات إيجابية في طريقته ومنهجيته كذلك لوحظت بعض السلبيات فيها منها:

– وقوعه أحيانا في زلل ما ينقل، وقد صحّح المحقّق من بعض الأقوال التي أوردها أبو الطيّب الفاسي منها على سبيل المثال: قوله عند حديثه عن صاحب البديع « قلت: وفي " النّحو" أيضا كتاب اسمه "البديع" ينسب إلى " ابن العلج" أكثَرَ " الرّضي" في " شرح الكافية" من النّقل عنه، والله اعلم» [20] وقد عقّب على ذلك المحقق بقوله: « هذا القول غير صحيح والصواب: (وفي النّحو كتاب اسمه " البسيط" وصاحبه أبو البقاء ضياء الدين بن العلج" أكثر " أبو حيان" وأتباعه النّقل عنه)[21]، إذ كان عليه التّحرّز أثناء النقل والتّأكد من صحة المعلومات أثناء الإسناد، إلا أنّ ما يشفع له، هو عدم جزمه بصحّة ما نقله مطلقا، وهو ما دلّت عليه عبارة (والله أعلم).

– كما وجدت نقدا آخر لعبد العلي الودْغيري أثناء عرضه الوافي لحياة المؤلف ابن الطيب الشرقي الفاسي، ولأعماله ومؤلفاته ومنهجه في الشروح، والحواشي بصفة عامّة، فقد قام بدراسة مستفيضة حوله، وقد انتقده في بعض تصانيفه في النحو ومن بينها مؤلّفه هذا (فيض نشر الانشراح) وهو شرح مفصّل - كما سبق وقلنا- لأصول النحو على ضوء كتاب الاقتراح للسيوطي، إذ رصد الودغيري العديد من الهفوات التي وقع فيها ابن الطيّب، وقد وصف شرحه في مواضع من كتابه بالسّطحيّة، كما آخذه على نقله الكثير من كتاب محمد ابن علان المسمّى" داعي الفلاح إلى مخبّات الاقتراح" قائلا:" تارة يشير إليه وتارة يغفل الغزو، ومع هذا فإنّه تهجّم على ابن علاّن ورماه بالجهل"[22]، وعلى العموم فإنّ هذا النّوع من التّأليف في الشروح، قد تلقّى موجة من القدح، والانتقادات في جدواها وفعاليتها في توصيل حيثيات قضايا الدّرس النّحوي إلى الدارس، أو الطالب منها: أنّ هذا النّمط التّأليفي عيوبه أكثر من منافعه، ذلك أنّ الشروح حسب تصوّرهم « تهتمّ بالمظهر دون الجوهر وتتشاغل بالألفاظ بدلا من الانشغال بالمعاني،... وتردّد الجمل المعادة المبتذلة والأمثلة المكرّرة، وتُكثر من حشد الآراء، والمسائل بسبب أو بغير سبب، وتكثر من الاستطراد ممّا يزيدها غموضا، وإمعانا في التّعقيد، بدلا من الإيضاح والتّسهيل... »[23]، كما أنّ ألوان هذا التّأليف من شروح، وحواشي، وتقريرات، تكثر من التعرّض لقضايا المنطق والجدل الفلسفي الذي لا يتناسب مع المستوى العقلي للطلاب المتلقّين لها والتي صنّفت أصلا لهم.

خاتمة: إنّه رغم الانتقادات الموجّة لهذا النّمط من التأليف السائد في الفترة المتأخرة من تاريخ النّحو العربي، والذي وجدناه متنوّعا بين المتون التلخيصية، والشروح والحواشي المطولة، ورغم كلّ النعوت السلبية التي حملتها ووُصفت بها، والتي توحي بالجمود وغياب الإبداع ، إلاّ أنّ الحقيقة المُنصفة للمؤلفين في هذا المجال، ومن بينهم ابن الطيب الفاسي ومن خلال تفحص النمّوذج الذي بين أيدينا، يكشف عن ضرورة عدم التّسرع في إطلاق أحكام تعميمية تعسفية في حقّ اجتهادات بعض العلماء الذين ظهروا في تلك الفترة، بدليل أنّ هناك الكثير منهم ممن مثّلوا هذا النّمط من التّأليف أحسن تمثيل، واتّسمت شروحهم بالدّقة واليسر والإيضاح، ويكفي أن نستشهد بقول الشيخ محمد عرفة منصفا هذه الميزة التّأليفية التي طغت تلك الفترة، بقوله: « أنّ العلم يمتاز بفهم الغامض وإدراك البعيد وحلّ المستغلق، وذلك لا يكون إلاّ بتعويد المرء على شيء من الصعاب، ليمرّن عقله على حلّ ما يماثلها، وكما أنّ الرجل الرياضي لا يكون قويّا على حمل أحمال ثقيلة متدرّجا في ذلك، كذلك لا يكون عقله قادرا على حلّ الصعاب إلاّ إذا عوّد عقله على حلّ مسائل عويصة متدرّجا في ذلك»[24] وبالتّالي؛ هذا النّوع من التّأليف أتى تماشيا مع تطور الحياة العصرية، وما شهدته من تغيّرات اجتماعية، وسياسية وثقافية، فانطبع ذلك على طريقة تناول العلوم آنذاك، ومن بينها علم النّحو، فمثّلت تلك الفترة امتدادا للفترات المتقدمة، وتكملة لها من حيث التّحليل والتّفسير، وكان لابدّ من توجيه التّصانيف السّابقة توجيها عقلانيا،وميسّرا لتحقيق أغراض تعليمية لدى الطلاب المقبلين على تعلّم النّحو وفهم أحكامه وحيثياته، وقد مثّل كتاب ابن الطيّب الفاسي أنموذجا حيّا على ثقافته، وتنوّع معارفه وعلى جودة وأصالة شرحه، رغم بعض الهانات التي علقت به. ويمثل أحد الجهود المسهمة في تطوير وتحيين الدّرس النّحوي وتقريبه إلى الدارسين والمتعلمين بشكل عام.

قائمة المصادر والمراجع المعتمدة:

[1]- ينظر، أبو الطيب الشرقي، فيض نشر الانشراح من روض طي الاقتراح، تح: محمود فجال، ج1، ط2، دار البحوث للدراسات الإسلامية وإحياء التراث، الإمارات العربية المتحدة، دبي، 2002م، ص 169.

[2]- جلال الدين السّيوطي، الاقتراح في أصول النّحو وجدله، شرح و تع: محمود سليمان ياقوت، دط، دار المعرفة الجامعية، 2006م، ص 5، ص6.

- محمد الدريج، تحليل العملية التعليمية، قصر الكتاب، البليدة، الجزائر، ص 235.[3]

[4] - محمد المختار ولد أباّه، تاريخ النحو العربي في المشرق والمغرب، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط2، 2008م، ص 414.

[5]- ينظر: عبد الله كنّون، النبوغ المغربي في الأدب العربي، ج1، ط2، طنجة ، المغرب: 1960، ص 291.

، سوريا، 1924م، ص 12- 13 ينظر: محمد أمين غالب الطويل، تاريخ العلويين، مطبعة الترقي اللاذقية[6] -

[7] - ينظر: محمد الأخضر، الحياة الأدبية في المغرب على عهد الدولة العلوية، ط1، دار الرشاد الحديثة، الدار البيضاء، المغرب، 1997م، ص67 - ص 75.

- ينظر: عبد الله كنّون، النبوغ المغربي في الأدب العربي، ص 274- ص 27.[8]

- ينظر: جورجي زيدان، اللغة العربية كائن حي، ص 9.[9]

[10] - ينظر: عبد الله بن عويقل السلمي، " المتون والشروح والحواشي والتقريرات في التأليف النّحوي"، مجلة الأحمدية، ع 04، دار البحوث للدراسات الإسلامية وإحياء التراث، دبي، 1420هـ، ص 4.

[11] - ينظر: المرجع نفسه، ص7.

[12] - ينظر: المرجع نفسه، ص 8.

[13] - أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور، لسان العرب، مج 2، دار صادر، بيروت، ص 497

.[14] - ينظر: المرجع السابق، ص 09

[15] - ينظر: محمود رزق سليم، الأدب العربي وتاريخه في عصر المماليك والعثمانيين والعصر الحديث، مطابع دار الكتاب العربي، مصر: 1957م، ص8 — ص11.

* قوله: مارواه السيوطي عن قول الخضراوي، وهو العلامة أبو عبد الله الأنصاري الخزرجي الأندلسي المعروف بابن البردعي.

[16] - أبو عبد الله محمد بن الطيب الفاسي، فيض نشر الانشراح من روض طي الاقتراح، ص 236.

[17] - المرجع نفسه، ص 236.

[18] . المرجع نفسه، ص 237.

[19] - المرجع نفسه، ص 228.[19]

[20] - المرجع نفسه، ص 240.[20]

[21] - المرجع نفسه، ص 240.

[22] - ينظر : محمد المختار ولد أباه، تاريخ النحو العربي في المشرق والمغرب، ص 415.

[23] - ينظر: عبد الله بن عويقل السلمي، المتون والشروح والحواشي والتقريرات في التأليف النّحوي، ص 13.

[24] - المرجع نفسه، ص 14.